

الأصول الإغريقية لمفهوم جودة الحياة

”دراسة في اليودايمونيا عند أرسطو“

د/ عزيزة عبد المنعم صبحي أحمد*

تمهيد:

يُعد مفهوم جودة الحياة من المفاهيم التي نالت اهتماماً كبيراً بين الباحثين في تخصصات معرفية عدة، مثل؛ علم النفس الإيجابي، العلوم الاجتماعية، العلوم البيئية، علوم الطب والرعاية، وغيرها، وهنا تكمن صعوبة تعريفه تعريفاً جامعاً مانعاً، وذلك لأنه قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمجال البحث المتعلق به وبمتغيراته، وإذا كانت الصعوبة تتصل بالاصطلاح؛ فإن الدلالة اللغوية التي قد تتم عن ماهيته، هي نمط الحياة ذو القيمة، ولأن جودة الحياة -في للدرس الفلسفي- هي موضوع للخبرة الذاتية، اختلفت النظريات حولها وحول ماهيتها.

لقد ارتبطت جودة الحياة بمفاهيم فلسفية أخرى، مثل؛ السعادة، العيش الطيب، الرضا عن الحياة، تحقيق الذات وغيرها، ورغم حداثة تناول هذا المفهوم، فإن كثير من المفكرين يرجعوه إلى أرسطو، الذي استخدمه تحت مسمى الحياة الطيبة أو اليودايمونيا.

إشكالية الدراسة:

كيف تمثل نظرية أرسطو عن الحياة الطيبة والحب إرهافاً فلسفياً لجودة الحياة، وكيف يمكن أن نستلهم منها - أي من نظرية أرسطو - أفكاراً ورؤى يمكن الاستفادة منها في الحياة الاجتماعية المعاصرة، لتصبح الحياة أكثر ازدهاراً؟

أما المناهج المستخدمة في الدراسة؛ فهي المنهج التاريخي، التحليلي، والنقدي.

تساؤلات الدراسة:

- ١- ما مفهوم اليودايمونيا عند أرسطو، وكيف اختلف هذا المفهوم لديه عن السابقين، ومدى تأثيره في جودة الحياة، وكيف يمكن الوصول إلى هذه الحال من السعادة؟
- ٢- ما مفهوم الفيليا؟ وما الفرق بينه وبين الإيروس، وكيف اختلف الباحثون حوله، وما سبب هذا الاختلاف، وكيف استخدمه أرسطو في فلسفته عن الحب والصدقة، وهل يمثل الحب جزءاً من الأخلاق الأرسطية، كيف ربط أرسطو بينه وبين نظريته في الفضيلة، وما دوره في تحقيق جودة الحياة كما تصورهما أرسطو؟

(*) أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة الإسكندرية

- ٣- ما طبيعة العلاقة بين الصداقة والحب الإيروتيكي في الأخلاق النيقوماخية، وهل تضمن الحب الأرسطي فكرة العلاقة التبادلية بين المحب والمحبوب؟
- ٤- ما دور الحب في فلسفة أرسطو السياسية؟ وهل جاء على شاكلة التصور الأفلاطوني عنه وعن أثره في المجتمع؟ أم جاء مخالفاً له؟ وكيف يمكن أن يساهم في إثراء حياة الناس وجعلها أكثر سعادة؟
- ٥- كيف يمكن أن نستلهم من آراء أرسطو عن السعادة والفضيلة والحب أفكاراً تساهم في إثراء حياتنا المعاصرة؟

وتأتى هذه الدراسة في محاور ثلاثة، وهى على النحو التالى:

أولاً: جودة الحياة واليودايمونيا؛ وأعرض فيه للتأسيس الفلسفى لمفهوم جودة الحياة، ثم أعرض لمفهوم أرسطو عن اليودايمونيا، والتي ينظر إليها بوصفها مفهوماً مؤسساً لجودة الحياة.

ثانياً: طرائق تحقق اليودايمونيا في فلسفة أرسطو؛ أوضح من خلال هذا المحور كيفية إحراز الحياة الجيدة التي تتسم بأنها حياة سعيدة، والتي تتمثل - في ظنى - في طريقتين هما؛ الفضيلة، والحب.

ثالثاً: أثر الفضيلة والحب في فلسفة أرسطو السياسية؛ وأتناول في هذا السياق كيف أن أرسطو قد ربط بين الحب و الفضيلة، وكيف كان للحب دور في تحقيق وحدة المجتمع، وتحقيق جودة الحياة، وكيف يمكن أن نستلهم من فلسفة أرسطو أفكاراً يمكن أن نستخدمها في واقعنا المعاصر.

أولاً: جودة الحياة واليودايمونيا

تعد النظريات الفلسفية عن جودة الحياة بمثابة التأسيس النظرى الذى يناقش المبادئ التي تجعل الحياة البشرية جيدة و تستحق أن تعاش. ولقد قدم فلاسفة الغرب بداية من سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى بيتام وكانط وغيرهم، نظريات عدة في هذا السياق أهمها:

- ١- نظرية اللذة وهي تلك النظرية التي ترى أن السعادة أو المتعة شرط أساسي لجودة الحياة.
- ٢- نظرية التفضيل العقلاني وهي التي تحدد نوعية الحياة من حيث الإشباع الفعلي أو تحقيق رغبات الإنسان وفقاً لتفضيلاته و خياراته العقلانية، وتكمن جاذبية تلك النظرية في أنها تؤكد فكرة مفادها أن الأفراد يحظون بحياة طيبة عندما تتوافق حال العالم الموضوعية مع ما يرغبون فيه عقلياً.

٣- نظرية الازدهار البشري، وتحاول هذه النظرية أن تؤسس فهمنا للحياة الطيبة وفقاً للقدرات والصفات الأكثر اكتمالاً، وإلى الحد الذي نحقق فيه هذه القدرات ونتجنب فيه الظروف التي من شأنها أن تقوضها، عندئذ تزدهر الحياة، وتتضمن هذه النظرية عنصراً تنموياً، ورغم اختلاف آراء الفلاسفة حول القدرات الإنسانية، فإنها في مجملها تؤكد القدرة البشرية على استخدام العقل وتطوير الذات، واستغلال الموارد المادية والروحية اللازمة لعيش حياة إنسانية جيدة^(١).

يثير مفهوم جودة الحياة جدلاً كبيراً حول قيمته وأصالته، يرى البعض فيه إثراء للذات الإنسانية ودورها الفاعل في جعل الحياة أفضل وأكثر رفاهية، ويرى البعض الآخر أن هذا الاتجاه يقوض الكرامة الإنسانية ويخس من قدر الحياة البشرية، حيث إنها -أي الحياة البشرية- قيمة في ذاتها لا لكونها وسيلة لشيء آخر، وذلك لأن جودة الحياة -وفقاً لمنقدي هذا الاتجاه- ترى أن الحياة ليست جديرة بالتقدير في ذاتها وإنما قد تكون كذلك وفقاً لظروف ومتغيرات تلك الحياة.

وهناك معان عدة لجودة الحياة، لكن أكثرها تميزاً هو أن ذلك المصطلح يشير في أحد معانيه إلى سمات الإنسان الفردية، وقد لا تحمل هذه السمات أهمية أخلاقية مباشرة، فراءة الحياة مثلاً (كاعتلال الصحة) لا تعد دليلاً على التردي الأخلاقي ولا تخبرنا بشيء عن القيمة الجوهرية في حد ذاتها. وقد تكون جودة الحياة هدفاً من أهداف الرعاية، التي تتعلق بتعاملنا مع الآخرين مما يثري الحياة ويجعلها أكثر رفاهية، وقد يشير هذا المصطلح إلى التفاعل الاجتماعي بين الفرد وبينته الاجتماعية والمادية ودوره الفاعل بها، وقد يشير إلى القيمة الأخلاقية للحياة^(٢).

إذا أردنا أن نتلمس مفهوم أرسطو عن جودة الحياة يجب أن ننظر في رأيه عن الحياة الجيدة واليودايمونيا، واليودايمونيا تمثل الأصل اليوناني لمصطلح جودة الحياة، ذلك التناول الذي قدمه أرسطو منذ ما يقرب من ألفي عام، وهو مفهوم مؤسس لما يُعرف اليوم بجودة الحياة، وهذا يستلزم بالضرورة النظر في بعض المفاهيم والعلاقات المتبادلة بينها، مثل؛ الخير، السعادة، الفضيلة، المتعة، الرفاهية.

يعتقد أرسطو أن جميع الأفعال تهدف خيراً ما، حيث يجب أن تكون هناك غاية مطلوبة لذاتها، ومن أجلها نرغب في جميع الغليات الأخرى، واليودايمونيا هي تلك الغلية التي نختارها لذاتها لا لعلّة أخرى، وتتكون كلمة يودايمونيا Eudemonia من ثلاثة أجزاء (Eu) وتعني الخير،

²⁾ Bruce Jennings: Quality of life, philosophical & Ethical Dimensions, art in, Encyclopedia.com/encyclopedias-almans-philosophical-and-ethical-dimenions.

¹⁾ Bruce Jennings: Quality of life, op. cit.

(Daimon) تعني النفس، (ia) لاحقة تدل على الفعل أو النشاط، ومن ثم، فالسعادة في نظر أرسطو هي نشاط (فعل) النفس الخير، والسعادة لدى أرسطو نشاط تأملي، وهذه الصفة التأملية دليل على طابع السعادة العام لديه (1).

يرى أرسطو أن الإنسان الذي يتمتع بطيب العيشة، وبحسن الفعل إنساناً سعيداً، ولقد انقسمت الآراء حول طبيعة السعادة وأصلها، فالبعض يضعونها في الأشياء الظاهرة كاللذة والثروة، في حين أن آخرين يضعونها موضعاً آخر، وقد يتغير رأي الإنسان نفسه عنها، فالمرضى يرى السعادة في الصحة، والفقير في الثروة... إلخ (2).

ومن ثم، يضع أرسطو صنوفاً ثلاثة للسعادة: فالعوام يرونها في اللذة، ومن أجل هذا هي لا تحب إلا العيشة في ضروب الاستمتاع المادي، وعلى ضد ذلك هناك العقول الممتازة النشطة التي ترى السعادة في المجد، وهو الغرض العادي للحياة السياسية، أما الصنف الثالث من العيشة هي العيشة التأملية والعقلية (3). واليودايمونيا هي تحقق الخير الأسمى، في حين أن الشرف واللذة والفضائل يختارها الإنسان لا لذاتها فحسب وإنما لنتائجها أيضاً، وكذلك تظهر السعادة أيضاً في الاكتفاء الذاتي self-sufficiency (1097b1-5).

ولأن الإنسان بطبعه كائن اجتماعي، يتضمن هذا الاكتفاء الوالدين والزوجة والأطفال والأصدقاء والمواطنين. ويؤكد أرسطو على طبيعة اليودايمونيا، وذلك من خلال التناظر الذي أقامه بين وظيفة الإنسان وعمل الحرفيين، وعمل أعضاء الجسم مثل العين واليد. وخلص من هذا التناظر إلى أن لكلاً مما سبق وظيفة منوط بها، ومن ثم، فوظيفة الإنسان هي فاعلية النفس وفقاً للعقل، والخير الإنساني هو فاعلية النفس وفقاً للفضيلة (4).

يحقق تعريف أرسطو هذا للسعادة بأنها فاعلية النفس وفقاً للفضيلة، يحقق الشروط التي قد ذكرها أفلاطون قبله، والتي ينبغي أن تتحقق في الحياة السعيدة، حتى تصبح كذلك، وهي؛ أن تكون تلك الحياة مرغوباً فيها لذاتها، وأن تكون مكتفية بذاتها، وأن يفضلها الحكيم على أية حياة

(2) Dylan Daniel: A summary of Eudaimonia in Aristotle, Academia.edu/41116739/A-summary-of-eudaimonia-in-Aristotle.

(3) أرسطو: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ج 1، ك 1، ب 2، ف 2، ، ترجمة من اليونانية إلى الفرنسية: بارتلمي سانتيلير، نقله إلى العربية: أحمد لطفي السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 175، 176. - CF Bahadir Kucukoysal & Erhan Beyhan: Virtue Ethics, in Aristotle Nichomachean Ethics, art in, international Journal of Human Sciences, Vol (8), 2011. P46.

(4) أرسطو : المصدر نفسه، ك 1، ب 2، ف 9، ص ص 178-180.

(1) Erik Ostenfeld: Aristotle on the Good life and quality of life, art in, philosophy & Medicine, concepts and measurement of quality of life in health care, ed by, Lennart Norden elf, Springer science + Business, 1994, p. 20.

أخرى، وهو ما يتحقق في تعريف أرسطو السابق، فالحياة الفاعلة النشطة على نحو يخرج إلى الفعل قدرات الإنسان التي يتميز بها هي أمر مرغوب فيه لذاته، وهي مفضلة على غيرها، كذلك هي الحياة الوحيدة التي يمكن أن تلقى رضا البشر على الدوام^(١).

اعتقد أرسطو أن الفاعلية الفاضلة هي جوهر السعادة وكل الخيرات الأخرى إما ظروف وأحوال ضرورية أو طبيعية (EN 1099b 25-7)، أما الآراء العامة فتعرف السعادة بأنها الخير الفعلي (نلك الفعل للذي ينتمي إلى النفس)، وهي الحياة الجيدة (أي تلك التي تحظى بالصحة والوفرة)، التي تتضمن بعض الخيرات كالحكمة والمتعة والخبرات الخارجية، لكن إذا كانت الفضيلة هي السعادة، فكيف تكون المتعة جزء من السعادة؟ يجب أرسطو أن الإنسان الفاضل يجد متعته في الأفعال الفاضلة، والسعادة هي أفضل وأمتع الأشياء لأنها لا ترتبط بمتعة جسدية، ولكن هناك بعض الخيرات الخارجية التي تساهم في بقائها؛ كالأصدقاء مثلاً^(٢).

إن تأكيد أرسطو أن للخيرات والظروف الخارجية تأثيرها الملحوظ على السعادة، كان مخالفاً للفكر اليوناني اللاحق؛ كالمدرسة الكلية والرواقية، مثلاً، والتي تستخف بهذه الظروف والخيرات، وتسقطها من حساب السعداء، أما أرسطو - كما أسلفنا - فينظر إليها على أنها تعين الإنسان على تحقيق السعادة (الثانوية)، إذا يتعذر أن تكتمل سعادة الإنسان إذا كان يعيش حياة ملؤها الألم والفقْد^(٣).

ثانياً: طرائق تحقق اليودايمونيا في فلسفة أرسطو

١- الفضيلة واليودايمونيا: يقترح أرسطو لفهم طبيعة السعادة التحقق أولاً في طبيعة الفضيلة، وذلك لأن السعادة هي الممارسة الفعالة للعقل وفقاً للفضيلة الكاملة، والفضيلة عند أرسطو عادة يمكن تعلمها، واكتسابها، ويقسمها أرسطو إلى فئتين: الفضائل العقلية التي تصقل بالتعلم، والفضائل الأخلاقية التي تصقل بالتربية والعادة، ونستطيع من خلال الفضائل الأخلاقية التعامل مع رغباتنا ومشاعرنا بعقلانية. أما عن ماهية الفضيلة فيذكر أرسطو أنه يوجد ثلاث مقولات داخل النفس البشرية؛ المشاعر، القدرات، حال الشخصية، ويرى ضرورة كون الفضيلة واحدة منها، ويقصد أرسطو بالأولى (المشاعر)، بصفة عامة، المشاعر المرتبطة باللذة أو الألم، كالغضب، الخوف، الفرح، الشوق، الحسد^(٤).

(٢) ألفرد إدوارد تايلور: أرسطو، ترجمة: عزت قرني، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٢، ص ص ١٠٩-١١٠.

انظر أيضاً: يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، هنداوى، القاهرة، ٢٠١٤، ص ٢٢١.

(٣) Erik Ostenfeld: Aristotle on the Good life and quality of life, p. 21.

(٤) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، المجلد الأول (اليونان وروما)، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٨٧.

(١) Bahadir Kucukoysal & Erhan Beyhan: Virtue ethics in Aristotle Nichomachean Ethics, p 47.

أما القدرات فهي التي نكون بها قادرين على الشعور بهذه المشاعر، كالشعور بالغضب أو الألم، وحال الشخصية وفقاً لأرسطو هي تلك الحال التي نكون في حال جيد أو سيئ، وذلك فيما يتعلق بالمشاعر، فمثلاً، عندما نشعر حيال الغضب بالضعف الشديد، نكون في حال أكثر عرضة له. ويذكر أرسطو أن الفضائل والردائل لا يمكن أن تكون هي المشاعر، فحنن لا نقول على إنسان ما أنه جيد أو سيئ وفقاً لمشاعره، وإنما على أساس فضائله وردائله، والأمر نفسه ينطبق على القدرات، ومن ثم، فالفضائل ليست هي المشاعر و ليست هي القدرات، ولكنها السمات الشخصية، ويؤكد أرسطو في هذا على الوسط العدل، وهذا الوسط اعتباري لا يمكن تحديده بعيداً عن سياق الظروف التي يحدث فيها⁽¹⁾.

ومن ثم ، تشير المشاعر ل0دى أرسطو إلى تجارب معنوية، نوع من الأفعال للحفاظ على الحياة، وتنظيمها، وتختلف أهدافها، حيث إنها قد تتمتع بسمات جذابة أو منفرة، ومن ثم تدفع الإنسان إما إلى البحث عن الأشياء التي تعزز وجوده أو تلك التي تضره، وتصاحب المشاعر إحساس اللذة أو الألم أو كليهما، ولدينا فئة خاصة من العواطف الجسدية يشار إليها بآلام العوز (جوع - عطش - جنس)، لذا يقول أرسطو: "إن اللذة أو الألم الذي تسببه الأفعال لصاحبها قد تكون مؤشراً للتقدي الأخلاقي، وذلك لأن السلوك الجيد هو موقف سليم يتخذ تجاه اللذة والألم"⁽²⁾.

إذا كانت السعادة نشاطاً تأملياً حيث تكون الأشياء التي نتأملها ذات معنى وقيمة تحقق المتعة، فإن هذا لا يبدو معقولاً بما فيه الكفاية، وذلك لأن الاعتبارات الاجتماعية أو البيئية المعرفلة والمربكة، قد تحول دون تحقيق هذه السعادة، لذا، فلدينا جميعاً التزام أصيل بتحسين مجتمعاتنا، حتى نجعل السعادة أكثر قابلية للتحقق، فإذا كان الإنسان الفاضل في مجتمع ما يعاني من القهر والتعذيب، فمن المستحيل أن نعتبره سعيداً، رغم فضيلته، ويشخص أرسطو هذه المسألة برأيه عن عدم اكتمال الفضيلة، فالفعل الفاضل يعني معالجة هدف المرء الخاص (أو غايته) بعقلانية، وذلك بالحصول على القدر المناسب مما يزيد، لأنه يجب أن نفهم حقيقة مفادها أن حالات مثل القوة، الصحة، تدمر بشكل طبيعي بسبب الإفراط أو التفريط، وهنا تظهر أهمية فضيلة الحكمة في اختيار الأشياء، فضلاً عن الظروف الخارجية⁽³⁾.

²(Bahadir Kucukoysal & Erhan Beyhan: Virtue ethics in Aristotle Nichomachean Ethics, p 48.

³(Purissima Emeldo Egbekpalu: Aristotelian concept of happiness (Eudaimonia) and its conative role in human existence: A critical evaluation, conatus, Journal of Philosophy, Vol 6, No. 2, 2021.p 81. <http://doi.org/10.12681/clp.26924>.

¹(Dylan Daniel: Summary of Eudaimonia in Aristotle.

إن الفاضل سوف يمضي حياته في السلوك الفاضل ويعاني في حدود المعقول، (1153 b) (19-21)، والسعادة الحقة لا يمكن أن تتحول إلى بؤس ولا إلى وضاعة أو كره، ومن ثم، أجمل أرسطو تعريفه عن السعادة: الفعل طبقاً للفضيلة التامة، لذا فهي تتغذى بالخيرات الخارجية عبر الحياة الكاملة (EN 1101 b14-16).

إذن، لليودايمونيا عند أرسطو هي للعيش للجيد وللعمل للجيد، والأخلاق هي كيفية للحصول على أفضل وأجمل وأسعد حياة ممكنة (EN 1095 a 5-6, 1103b 26-29)، والأفضل هنا يعني الإدراك الموضوعي لإمكانات وقوى الإنسان مما يرفق إلى النجاح ويؤدي إلى تحقيق الذات، والأجمل تشير إلى تقدير الرفاق، أما كلمة الأسعد فتشير إلى القناعة الموضوعية التي يمكن الحصول عليها من هذه الحياة^(١).

لكن كيف يمكن للمرء أن يصل إلى تلك الحال العقلية الرائعة التي يشير إليها أرسطو بكلمة يودايمونيا؟

يجب بداية أن نقر بأنه من غير الممكن أن نختبر الحياة المثالية المفعمة بسعادة التأمل، لذا، فإن هدفنا هو أن نبذل قصارى جهدنا، وليس أن نكون كاملين، وهذا يتضمن اختيار الهدف الصحيح، وثانياً يجب أن نأخذ بالإجراءات اللازمة لتحقيق هذا الهدف، فوفقاً لأرسطو، هناك طريقان قد يؤديان إلى فشل هذا المسعى، ويتمثلان في؛ الإفراط والتفريط، والسبب فيهما هو عدم الاستخدام الكافي والسليم للعقل سواء في مواقف الفرد الخاصة، أو فيما يتصل بالمجتمع^(٢).

ورغم ما قدمه أرسطو من تناول منهجي وافٍ عن السعادة والفضيلة، فقد وجهت إليه سهام النقد، فعلى سبيل المثال، يُنتقد اهتمام أرسطو في تحليله لنظرية اليودايمونيا بالعقل البشري على حساب الطبيعة البشرية و إن تقييد السعادة لديه، بالنشاط المعرفي، يؤكد أن وظيفة الإنسان هي التفكير، وبالتالي أن يعيش الإنسان نمطاً من الحياة متضمناً لمبادئ عقلية، وتكون وظيفته هي الأداء الجيد لهذه المبادئ، عندئذٍ -كما يقول أرسطو- تتحول السعادة إلى فعل للنفس موافق للفضيلة، لكن ماذا عن أولئك الذين يعانون نقص القدرات العقلية بسبب الوراثة أو الشيخوخة، هل نعتبرهم، لهذا، أقل إنسانية أم نحكم عليهم بأنهم غير قادرين على تحقيق السعادة التي يرغب فيها الجميع، ومع ذلك، فإن مثل هؤلاء يحيون ويزدهرون وقد يحققون نجاحاً كبيراً بسبب إرادتهم وآمالهم المستمرة^(٣).

²⁾ Erik Ostenfeld: Aristotle on the Good life and quality of life .p. 22.

³⁾ Dylan Daniel: Summary of Eudaimonia in Aristotle .

⁴⁾ Purissima Emelda Egbekpalu: op. cit. p.82.

كذلك ليس هناك معياراً كلياً وعماماً عن تلك الفضائل التي يقوم بها الإنسان بوصفها جسداً لتحقيق السعادة وذلك لأنها تختلف باختلاف الأفراد، والعصور المختلفة، ومن ثم فليس هناك موجه لها، مما يؤدي إلى النسبية الأخلاقية في السعي وراء السعادة، كذلك قول أرسطو بأن الأفعال الصحيحة هي الأفعال الفاضلة تمثل موطن ضعف في نظريته، أي أن، الفعل يكون صحيحاً، إذاً، فقط عندما يكون متوافقاً مع الفضيلة⁽¹⁾.

٢- الحب واليودايمونيا

يُعد مصطلح فيليا φίλια مصطلحاً استثنائياً بين مصطلحات القيم اليونانية القديمة، وذلك بسبب الاختلاف حول ماهيته، ولم طرحه من أسئلة لم يتم الإجابة عنها بعد، (الغموض نفسه يكتنف المصطلح المرتبط به φίλος والذي غالباً ما يترجم بالصديق) وهناك جدل كبير حول دلالاته، يرى البعض أنه يشير إلى القرابة وغيرها من العلاقات، ومن ثم ينطبق المصطلح على علاقات الدم (Elizabeth Belfio 2000)، في حين يرى البعض الآخر، أن المحبة اليونانية ليست بالضرورة علاقة ود وقرابة، لكنها قد تكون علاقة تتسم بالطابع العملي، و توجد بين أناس مختلفة (2001). (Michael Peachin) ويمكن التوفيق بين هذين الموقفين بالقول: "إن فيليا تتضمن جانباً عملياً وآخر عاطفياً"⁽²⁾.

ويرجع الاختلاف بين الباحثين حول هذه المسألة إلى عدة أسباب منها؛ مقارنة من يصفون هذا الطابع العملي على فيليا عند اليونان بالأساس العاطفي لمعنى الصداقة والحب في أيامنا هذه، حيث نتوقع من الأصدقاء أن يساعدونا في أوقات الأزمات، دون أن يناقض هذا طبيعة هذه العلاقة العاطفية، كذلك يرجع هذا إلى اختلاف فكرة المحبة اليونانية بشكل كبير عنها في العصر الحديث، وذلك لارتباطها، حينذاك، بآراء نظرية حول طبيعة المجتمع اليوناني ومفهوم الذات التي تتشكل من خلال علاقات؛ كالقرابة والمكانة⁽³⁾.

لم يستخدم السياق اليوناني مصطلحين متميزين للحب والصداقة، بل استخدم كلمة فيليا لكل منهما، وترك المعنى الدقيق لها حسب السياق الذي وردت فيه، وأفضل في هذا التناول ترجمة كلمة φίλια إلى حب لا صداقة، وذلك لأنها تتضمن العديد من العلاقات المختلفة التي لا يمكن تسميتها بالصداقة، مثل الحب بين الأم والطفل، فضلاً عن كون هذه الكلمة قد تشير إلى علاقة حميمة تتطوي على عواطف جنسية، وقد تشير إلى صلات بين أفراد المجتمع، على حد ما أشار أرسطو في الأخلاق النيقوماخية.

²(Ibid. p, 83.

³(David Konstan: Aristotle on love & Friendship, ΣΧΟΑΗ, Vol 11.2 (2008), p. 207.

⁴(Ibid., p. 208.

أما عن موضوع الحب، فيرى أرسطو أنه من البديهي ألا يحب الإنسان إلا الشيء القابل لأن يحب، أي الخير، أو الملائم أو للنافع، ومن ثم فالملائم والطيب من جهة كونهما غرضين أخيرين يقصدهما المرء يجب أن يعتبروا الشئيين الوحيديين اللذين يتجه إليهما الحب، ثم يوضح أرسطو أن الخير الحقيقي المطلق ليس هو ما يحبه الناس، بل هم يحبون فقط ما هو خير لهم، أو ما يظهر لهم أنه خير^(١).

يرى أرسطو أنه في حالة التعاطف مع الأشياء غير الحية لا يطلق على تلك الحالة فيلينا (حب) وذلك لأنه لا يمكن أن يوجد فيها مقلبل لتلك المحبة، وكذلك لا يمكن أن يراد لها الخير، ويعطي مثلاً لذلك فيقول: "ألا يكون هزواً أن يريد المرء الخير للنبذ الذي يشربه"، والأمر على الضد بالنسبة للصديق، حيث يقال إنه يلزم أن يراد له الخير نفسه هو ليس غيره، ويطلق أرسطو على تلك القلوب التي تريد خير الغير، أنها قلوب عطفة، ومتى كان هذا التعاطف متبادلاً يتحول إلى فيلينا^(٢). ومن ثم، يخص أرسطو الخير المتبادل بين الأصدقاء بمصطلح فيلينا، ولا يطلقه على الأشياء غير الحية.

ومن ثم، يتسم الحب عند أرسطو بأنه إيثارى altruistic، حيث يقوم المحب بالخير من أجل الآخر ووفقاً لما يتصوره الآخر على أنه خير، وهو ما أكده أيضاً في كتاب "الخطابة" فيذكر أن "فيلوس" المحب يجب أن يشارك في متعة وألم الآخر، من أجل الآخر لا من أجل شيء سواه (1381 a3-7). ولقد اختلف مفهوم أرسطو عن الحب والعاطفة اختلافاً كبيراً عن تصور كل من القدماء والمحدثين، فالحب ليس بتجاذب بين الشبيهين (كما قال أمبادوقليس)، وليس أيضاً بتجاذب بين الضدين (كما قال هرقلطس)، لكنه علاقة إنسانية لا تتوقف عند المسائل الطبيعية، وبذلك جاء تصور أرسطو عن الحب مخالف لتصور الفلاسفة السابقين^(٣).

كذلك خالف أرسطو التعريفات الحديثة له، فعلى سبيل المثال، يُعرف الحب في قاموس Websters (١٩٥٩) بأنه شعور قوى وعاطفة حارة تجاه شخص ما، ويعرفه إيلي هاتفيلد Elaine Hatifield ورينشارد رابسون Richard Rapson في كتابهما "دليل العواطف" (٢٠٠٠) بأنه يجمع بين مشاعر الارتباط العميق والالتزام والحميمية. أما عند أرسطو فلا يصف الحب بأنه عاطفة أو علاقة فحسب، بل يصفه بأنه نية راسخة^(٤).

(٢) أرسطو: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ك ٨، ب ٢، ف ٤، ج ٢٢٠٠٨، ص ٢٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ك ٨، ب ٢، ف ٤، ص ٢٢٦.

(٤) زكريا إبراهيم: مشكلة الحب، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٦٧.

(١) David Konstan: Aristotle on love & Friendship, p٢٠٩.

والمقصود بالنية الراسخة أن تتمثل تلك النية في خير الآخر ورفاهيته حتى وإن لم يكن هناك مقابل لهذه المحبة، وهنا يستشهد أرسطو بحال الأمهات اللاتي اضطررن إلى ترك أولادهن، رغم حبهن الشديد، ومعرفتهن أنهن لن يحصلن على مقابل لهذا الحب^(١). كذلك فإن الحب ليس مجرد مسألة نوايا طيبة أو مشاعر فحسب، بل إن الأمر يتعلق بالمواقف والصفات التي تؤدي إلى الاختيار الصحيح (32-38 b1157)، فقد يرغب الإنسان في القيام بما هو عادل وكريم لكنه يختار أفعالاً ضارة بالآخرين، وذلك بسبب افتقاره إلى الحكمة العملية، وفي هذه الحالة، فهو ليس عادلاً أو كريماً، كذلك هو ليس محباً بحق (17-1144 b1)^(٢). ويرى أرسطو - كما أسلفنا - أنه ليس كل شيء محبوب، لكن ما هو محبوب هو الخير أو الملائم أو النافع، ومن ثم، فإن حب المرء لدى أرسطو يتوقف على طبيعة الآخر، أو رغبته في حصول ذلك المرء على الخير، وتختلف أنواع المحبة المتبادلة وفقاً لذلك، وهنا يقارن أرسطو بين ثلاثة أنواع من تلك المحبة (أو الصداقة).

أول تلك المحبة هي تلك التي تتكون باللذة والتي تنشأ بين العاشق والمعشوق، وتنقضي بانقضاء سن الجمال فهذا لم تبق له لذة في رؤية صديقه القديم، وذلك لم تبق له لذة في قبول التفاته، وقد تبقى تلك الصداقة متى توافقت العادة، وذلك إذا اكتسبا الحبيبان في هذه العشرة الطويلة ميلاً متبادلاً موافقاً لأخلاقهما، وهناك محبة المنفعة وهؤلاء ليسوا أصدقاء بحق وإنما تنقضي صداقتهم بانقضاء المنفعة المرجوة .. ويرى أرسطو أن اللغة العامية تسمى علاقة اللذة والمنفعة بالصداقة، لكن الصداقة الحقة هي صداقة الفضلاء والأخيار الذين يحب بعضهم بعضاً من حيث كونهم أحياناً وفضلاء، أما الصداقات الأخرى فليست صداقات إلا بالمشابهة لتلك^(٣). ولقد أكد أرسطو في "الخطابة" على ضرورة كون الحب متبادلاً وعلى السمات الشخصية التي تلهم الحب في الآخرين فيقول: "إننا نميل عموماً إلى حب أولئك الذين يتصرفون بطريقة لطيفة، وكذلك نحو الذين نعجب بهم، وأولئك للذين نرغب في أن نحظى بعجابهم، ومن الواضح أننا في هذه الحالات قد نحب شخصاً آخر دون أن يبادلنا هذا الحب، لكننا لا نكون محبين إلا إذا كان الحب متبادلاً، ويؤكد ... أن الناس تحب أولئك الذين يعاملوهم بطريقة حسنة

(٢) أرسطو: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ك٨، ب٨، ف٧، ص ٢٤٨.

(٣) Richard Kraut: The importance of love in Aristotle's Ethics, philosophy Documentation center, 1975, p. 316.

<http://www.pdcnet.org>scholar pdf> show>.

(٤) أرسطو: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ك٨، ب٤، ف٤، ص ٢٣٣، ٢٣٤.

أو يعتقدون أنهم يرغبون في ذلك، وأيضاً أولئك الذين يحبون الذين يحبونهم، ويضيف أننا نحب أولئك الذين يكرهون نفس الأشخاص الذين نكرهم^(١).

ومن ثم، وبتأكيد أرسطو على تبادلية الحب، نتساءل هل تضمنت تلك التبادلية فكرة العلاقة؟

رغم كون الحب عاطفة، فهو أيضاً علاقة، فقد أشعر بالحب تجاه شخص ما، أو أقع في حب شخص ما، لكن لا يكون الحب حاضراً حقاً، إلا إذا كانت هناك علاقة متبادلة، أي أن أرسطو قد اعتقد أن الحب لا يمكن فهمه دون ارتباطه بالإيثار، وبالرغبة المتبادلة بين المحبين لتوفير الأشياء الخيرة من أجل الآخر، وإن لم يحدث ذلك، فهذا يُدين المحب ويُقص الحب^(٢).

ومن ثم، تتعلق نظرية أرسطو في الحب بنوع الارتباط الذي يستحق أن يُطلق عليه مسمى حب أو صداقة، فإذا أحب أ ب، وأحب ب أ فهما ليسا محبيين، ما لم يدركا حب كل منهما للآخر (1156 a 2-4)، ويختاران ويستمتعان بالأشياء نفسها (1157 b22) ويفرحان ويحزانان معاً (1166a 7-8, 1171 a 6-7) ويطلق أرسطو على هذا الارتباط الحميم اسم الرفقة أو الرفافة (1157 b23) و التي لا توجد إلا بين للفاضلين على قدم المساواة (1161 a 25-26) وهي ما يعتبرها أرسطو علاقة مثالية (1156 b7-35)^(٣).

يُعد الحب الشخصي والصداقة من الأنشطة البشرية التي تحتاج بالضرورة إلى خيارات خارجية، وهذا النوع من النشاط يتناقض مع التأمل، الذي يمثل فعلاً ذاتياً، أما الحب والصداقة فيتطلبان شخصاً آخر محب، إنها علاقات وليست حالات فاضلة، وعلاقة الحب أكثر عرضة للخطر، وذلك لأنها تنطوي على طرفين يشكلان عنصرين مختلفين في العالم، وتتطلب تلك العلاقة عدالة ولطف متبادلين، وهو ما أشارت إليه مارثا نوسباوم Martha Nussbaum في كتابها "هشاشة الخير" "Fragility of Goodness" وذكرت أسباباً لهشاشة هذه العلاقات، ومنها، على سبيل المثال، الحظ، وربما ما تعنيه أن علاقات الحب لم تكن موجودة، ولم تدم طويلاً إذا لم يكن هناك حظ^(٤).

²(Aristotle: Rhetoric (11), Ch (4), (1381 a11-14), Trans by, Mckeon.R, in the basic work of Aristotle, Random House, New York, 1941, p. 1387.

³(David Konstan: op. cit., pp. 211, 212.

⁴(Richard Kraut: The importance of love, op. cit., p. 307.

⁸(Emile Salim: Embracing the half: Aristotle's Revision of platonic Erōs & Philia, Texas A & M university, 2006, p. 6.

لكن ما طبيعة العلاقة بين الحب الإيروتيكي^(*) والصدقة ؛ يقول أرسطو في الأخلاق النيقوماخية: "ليس ممكناً أن يكون المرء محبوباً من أناس كثيرين بصدقة كاملة، كذلك ليس ممكناً حب أناس كثيرين في آن واحد، الصدقة الحقة هي ضرب من الإفراط في نوعها، هي ميل يتغلب على سائر الميول ولا يتجه بطبعه إلا إلى شخص واحد، ولكن يمكن أن يعجب المرء لفييف من الأشخاص متى لم يكن الأمر إلا بصدد المنفعة أو اللذة"^(١).

وفي هذا النص السابق يتحدث أرسطو عن تلك العلاقة التي لا تكون إلا بشخص واحد، ويرى أنها ضرب من الإفراط extreme ، ولم يوضح أرسطو ما يعنيه بكلمة إفراط فقد تعني الكمال النبيل وقد تعني الإفراط السيئ، لكنه على كل الأحوال تصور أن الحب الإيروتيكي نمطاً من التطرف بينما ينظر إلى الصدقة بوصفها كمالاً، ويمكن أن نستنبط مقصد أرسطو من خلال ما أورده عنهما- أى الصدقة والحب- ، ومن ثم، لا يمكن اعتبار الحب الإيروتيكي رذيلة حتى وإن كان إفراطاً، والسبب في ذلك أنه إفراط في الصدقة، وهي شيء ممتع وضروري، ويُعد إفراطاً في الصدقة لأنه إفراط في بعض سماتها؛ كالعواطف والانفعالات^(٢).

وإذا نظرنا إلى كلمة تطرف بوصفها أمراً فائقاً، عندئذ تكون الصدقة الكاملة أقل درجة من الحب الإيروتيكي، وهذا الأمر هو ما رد عليه أرسطو بوضوح، وذلك عندما نظر إلى هذا الحب بوصفه نوعاً من الصدقة تنشأ بين المتناقضات (1159b 12-20)، (1167a 3-7) ومن ثم، فالحب الإيروتيكي هو مزيج من صدقة المتعة وصدقة المنفعة، وهي صدقة بين غير المتكافئين. ولقد نظر إليه أرسطو نظرة غير مقدره وذلك لارتباطه بالمشاعر أكثر من الشخصية، وقد وصفه في الأخلاق الأوديمية Eudemian Ethics بأنه شعور غير عقلاني (1229 a20)^(٣). وهذا هو نمط الصدقة الذي يوجد بين الشباب، ولا تُعد صدقة بحق.

^(*) يعتبر إيروس لفظاً جنسياً يشير إلى معاني العشق، والأصل في هذا الاستخدام، أن اليونانيين كانوا يجمعون بين إيروس إله الحب، وديونيسوس إله الخمر، فكانوا يسرفون في الحب والشراب، وكانوا يتخذون من الحب مطية للاستمتاع بمباهج الحب. أما أفلاطون فقد اضفى طابعاً فلسفياً عليه. ولقد أورد أسطورة المأدبة يوضح فيها كيف نشأ إيروس عن تزواج الغنى (بوروس)، والعوز (بيننا)، وينتهي أفلاطون في هذه المحاوره إلى وجهات نظر مختلفة بشأن العلاقة بين إيروس وفيليا، فيذكر مرة أن إيروس هو مبتدع فيليا، ومرة أخرى أنه هو = فيليا، ومرة ثالثة أنه سلم صعود فيليا إلى مثال الجمال، أما ارسطو فيرى الإيروس إفراطاً من الفيليا، يجب تجنبه، لكنه التزم الصمت بشأن العلاقة بينهما.

- انظر زكريا إبراهيم: مشكلات الحب، ص ص ١٣١، ١٣٢.

- CF Emil Salim: Embracing the Half: Aristotle Revision of platonic Erōs & Philia, p. 13.

^(٢) أرسطو: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ك٨، ب٦، ف٥، ص ٢٤٠.

^(٣) Emil Salim: Embracing the half, op. cit., p. 82.

^(١) Ibid., p. 88.

إذا كانت الصداقة -وفقاً لأرسطو- تتسم بعض السمات منها؛ أن يتمنى الصديق لصديقه كل خير، وأن يعيش من أجله، ويقضي وقته معه، ويتخذ نفس خياراته وأولوياته، ويشاركة في محنته ومتعته، فإن الحب الإيروتيكي يتجاوز فكرة أن يعيش المحب من أجل المحبوب أو أن يتمنى له الخير المطلق، أما عن باقي سمات الصداقة، فالحب الإيروتيكي يتسم بها لكنها تقوم على مشاعر مفرطة، فقد يتخذ العشاق الخيارات نفسها، لكنها قد تكون خيارات غير مناسبة غير نافعة^(١).

إذا كان الحب الإيروتيكي سيئاً، فهل الصداقة الفاضلة بين الرجال والنساء فاضلة أيضاً وممكنة أم لا؟

إن الصداقة بين الرجال والنساء طبيعية، بل وقد تكون فاضلة أيضاً (1161 a25)، وليس بالضرورة أن تكون رومانسية أو مثيرة دائماً، لأن هذا النوع من المحبة يتعلق أكثر بالوفاء بأدوار مختلفة في الأسرة، وذلك من أجل إنجاب الأطفال وغيرها من مهام الحياة، وبسبب التمييز الجنسي الذي يمارسه أرسطو بحق المرأة، فمن غير الممكن أن تصل المحبة بين الرجال والنساء إلى أعلى درجات الصداقة الكاملة، لأنها صداقة بين غير متكافئين، وذلك لأن عقل المرأة -وفقاً لأرسطو- أدنى من الرجل، كذلك فإن أسمى أنواع الصداقة لا بد أن تكون بين متساويين تماماً^(٢). إن رأي أرسطو السابق عن الحب الرومانسي بين الرجل والمرأة لا يتوافق مع ما ذكره ديوجين اللائري من أن أرسطو قد وقع في غرام محظية من محظيات هيرمياس، وتزوجها بعد أن تخلى عنها هيرمياس من أجله، وأنه من فرط سروره قد قدم الأضاحي تكريماً لهذه المرأة بعد موتها، كما كان الأثينيون يقدمون الأضاحي للربة ديميتر^(٣). إذا صدمت هذه الرؤوس، وهنا نتساءل هل كان لدى أرسطو حب عاطفي قوي لزوجته، هل أمام عاطفته هذه تجاوز موقفه غير المقدر تجاه المرأة، وتجاوز رليته عن طبيعة علاقة الرجل بالمرأة بوصفها علاقة مهمة لحياة الأسرة.

ويحاول بعض الباحثين (Juhasihvola) حل هذه الإشكالية بالقول بأن أرسطو يرى أن الرغبة الجنسية شيء طبيعي ومقبول، ويقسمها -أي أرسطو- إلى ثلاث؛ عقلانية rational، روحية spirited، وشهوانية appetitive desire، وبينما لا تنصت الأخيرة أبداً إلى العقل، فإن الرغبة الروحية تنو إلى الجمال والتعقل، والحب الإيروتيكي ليس مجرد رغبة شهوانية فحسب

^(٢) Ibid., p. 93.

^(٣) Emil, Salim: Embracing the half: op. cit., p. 97.

^(١) ديوجين اللائري: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الأول، ك ٥، فقرة ٣، ٤، ترجمة وتقديم: إمام عبد الفتاح إمام، راجعه على الأصل اليوناني: محمد حمدي إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، للقاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٣٧٣.

لكنه رغبة روحية أيضاً، وبينما تُعد العلاقة الجنسية رغبة شهوانية، فالمودة في الحب هي رغبة روحية، ومن ثم، نجد في أخلاقيات أرسطو تطوراً في الحب الإيروتيكي من الرغبة الشهوانية إلى المودة الروحية⁽¹⁾.

كيف ربط أرسطو بين رأيه في الحب ونظريته عن الفضيلة؟

تمثل الفضيلة قيمة كبرى في الأخلاق النيقوماخية، ليس فقط لأنها ترتبط باستخدام العقل، لأنه يمكن لغير الفضلاء استخدام العقل أيضاً، ولكن، أيضاً، لأنها تعبير عن موقف محب تجاه الآخرين، فلكي نكون سعداء ينبغي علينا الدخول في علاقات حب مع أشخاص آخرين، والإنسان الفاضل يكون أكثر استعداداً وقدرة على حب الآخر، لذا، فإن الفارق بين الإنسان الصالح والطالح لا يكمن في الدرجة التي يستخدم بها عقله، بل في موافقه من الآخرين، وليس التأمل هو ما يوفر ذاك الجسر المفقود بين الفضيلة والسعادة، لكنه الحب⁽²⁾.

يقول أرسطو بنوعين مختلفين من الحب الحقيقي، الأول منهما؛ أن ننجذب لشخصية الفرد ونحبه للصفات التي فيه، ويبدأ هذا الإنجذاب بحسن النية والرغبة الطيبة، وإدراك أن الحب الحقيقي هو الحب الذي ينشأ عن وجود بعض الفضائل الظاهرة في شخص ما (IX , 5)، وعندما يكتشف المرء أن موضوع إرادته الطيبة هو فاضل حقاً، وبالتالي يستحق حبه (1156b 25-32)، وعندما يساعد هذا الإنسان من يحبه، تتعزز رغبته هذه حتى تتحول إلى حب، فيصبح المرء محباً لموضوع إحسانه تماماً، كما يحب الحرفي القطعة الفنية التي صنعها (116b31)، أما النوع الآخر من الحب، فله سمات مختلفة، وهو حب الأطفال، وهو طبيعي لدى جميع الآباء (1155a 15-18)، وينشأ فور ولادتهم، ولا يتطور تدريجياً، بل ينشأ فجأة وبقوة، ولا ينتج عن إعجابنا بصفات المحبوبين الفاضلة، لكننا نحبهم من أجلهم وليس من أجلنا⁽³⁾.

إن الحب عند أرسطو من الخيرات الخارجية التي تجعل الحياة سعيدة، ويكون الإنسان المحبوب أكثر سعادة من كونه مكرماً (1159 a25-27)، فقد يحدث التكريم للحصول على خيرات أخرى، في حين أن كون المرء محبوباً فهذا شيء يريده الجميع لذاته (1159 a 16)، فالحب عند أرسطو هو في حد ذاته جزء ضروري من الحياة الطيبة، وليس كل الأفعال الفاضلة هي أفعال حب، حيث يرى أرسطو أن كثيراً من الأفعال الفاضلة قد توجه إلى غير أحبائنا، فعندما يساعد شخصاً ما نعتقد أنه يستحق المساعدة دون أن نحبه (7 1158a-1157b 17-19)، وحتى في حال

²⁾ Emile Salim: Embracing the half: op. cit.

³⁾ Richard Kraut: The importance of love in Aristotle's Ethics, p. 305.

⁴⁾ Richard Kraut: op. cit., p. 306.

أننا لا نحبه، فإن الفضيلة تتطلب أن نكون لطفاء معه، و رغم أن الأفعال الفاضلة قد تفيد عامة الناس، فإنه لا يمكن أن نشعر تجاههم جميعاً بالحب^(١).

يربط أرسطو بين الحب والفضيلة، فيصور الإنسان السوء بأنه هو الذي يؤدي الآخرين بسبب رغبته المفرطة في الثروة أو المتعة الجسدية أو السلطة، وفي علاقاته بالجميع باستثناء ذريته، لا يهدف السلوك الفاضل لأنه يعتبر أن أهميته ضئيلة في تحقيق السعادة، وعندما يساعد الآخرين، فهذا لا يكون إلا وسيلة لرفاهيته الخاصة، وفي هذا يقول أرسطو في الأخلاق الأوديمية: "يفضل الشرير ما هو خير بطبيعته على الصديق، ولأن كليهما لا يحب البشرية، فإنهم ليسوا أصدقاء (1237b 20-30)"، ولا ينكر أرسطو أن الأشرار قد يستمتعون بوجودهم معاً، وقد يعجبون ببعضهم، لكن هذا الإعجاب ليس حباً^(٢).

يقول أرسطو: "إننا ننثني على محبي البشر (115 3a 21-22) وهنا يستخدم كلمة الحب بشكل فضفاض، حيث لا يمكن للمرء أن يشعر بهذا الحب إلا تجاه قلة قليلة، وهنا يمتدح أرسطو فكرة التقبل لكل خير موجود في الإنسان، والاستعداد لمساعدته وفقاً لاستحقاقاته، أما تمنى الشر للإنسان هو رذيلة، ولهذا السبب أدان الحسد الذي يعني الشعور بالألم لرؤية أي حظ سعيد، والحد وهو الشعور بالمتعة تجاه أي حظ سيئ (1108 b4-6) وذلك لأن هذه المواقف تتضمن عداءً تجاه العالم، ومن جهة أخرى يرى أرسطو أنه لا يوجد إنسان أناني تماماً فالجميع، حتى الإنسان السيئ يحب أطفاله وذويه، ومن ثم يجب أن نكون لطفاء مع الجميع، وليس فقط مع هؤلاء ممن يتمتعون بشخصية ممتازة^(٣).

ثالثاً: أثر الفضيلة والحب في فلسفة أرسطو السياسية

لقد أكد أفلاطون في "المأدبة" دور الحب في تحقيق وحدة المجتمع و ازدهاره واستقراره، فالحب هو الذي يحقق لنا السعادة في هذه الحياة ، لأنه يرشدنا إلى من هو قريب منا، مرتبط بنا وهو الحب الذي يعيدنا إلى حياتنا الأولى فتندمل جروحنا، والحب يقضي على العنف، لأن العنف لا يمكن أن يمس الحب، وإذا ما أذعن الجميع للحب تم الاتفاق وساد التراضي والعدل في المجتمع، وعن قوته، يقول أفلاطون، لأنه تفوق على مارس إله الحرب، فلم يكن مارس هو للذي أسر الحرب، بل الحرب هو الذي أسر مارس، والحب هو ما يجمع الشمل، ويهيمن على الأعياد والحفلات، ويمنح الفرحة، ويزيح الهموم، ويقوي أواصر العلاقات بين مواطني الدولة^(٤).

^(٢) Ibid, p. 311, 313.

^(٣) Ibid, p. 310.

^(٤) Richard Kraut: op. cit., pp. 315, 316.

(١) أفلاطون: المأدبة، ف ١٨٨، ١٩٨، ترجمة: وليم الميري، دار المعارف، بمصر، ١٩٧٠م، ص ٤٧، ٥١.

أما أرسطو فقد كان متردداً بشأن أهمية الحب للمجتمع، فهو إلى حد ما يواصل ما قاله أفلاطون عن الحب، ويؤكد أن الدولة تقوم على الحب والعلاقات الودية، فالحب لا يقتصر أثره على العلاقات الفردية، بل إنه يؤثر على الحياة الاجتماعية والثقافية للبشرية كلها، وفي الوقت نفسه يعارض هذه الآراء وذلك لأن الحب - وفقاً له - قد يؤدي إلى عواقب سلبية بحق المجتمع والدولة من جراء انحرافاته.

يرى أرسطو أن هناك ارتباطاً قوياً بين السلطة الملكية وعلاقة الوالد بأولاده، فالعطف والمودة كما هي بين الولد والأبناء هي أيضاً للحاكم على المحكومين، ولهذا السبب يطلق هوميروس على زيوس أنه أب الآلهة والبشر جميعاً. وهو الملك عليهم، وذلك لأن الطبيعة تتطلب أن يكون الملك من نفس نوع للذين يحكمهم، وإن كان متفوقاً في بعض التفاصيل، كما هي الحال في علاقة الوالد بالأبناء (7-11 a 12 59).

لذلك يرى أرسطو تشابهاً بين مظاهر الحب الفردية (الأسرة) والاجتماعية (الدولة)، فوفقاً له لا ينبغي لرجل الدولة أن يهمل الشعب، ولا أن يسيء استخدام سلطته بحقهم، بل يجب أن يعامل رعيته بعناية واهتمام فالحب يتسم بالقوة والهدوء والوضوح، ولا يهان أبداً⁽¹⁾.

ويعكس مؤلف "السياسة" لأرسطو تقييمه الإيجابي والسلبى للأثر المباشر للحب في تطور الدولة والمجتمع، ويقول أرسطو في هذا: "أعتقد أن الحب هي أعظم الخيرات لأية دولة، وذلك لأنه يمنع الثورات والفتن، والمحبة هي ما يوصي به سقراط من أجل وحدة الدولة، تلك الوحدة التي صورها أفلاطون في المأدبة، وحال المحبين فيها و الذين قال عنهم أريستوفانيس إنهم من شدة الحب والشغف يرغبون في أن يصبحوا نفساً واحدة"⁽²⁾.

يؤكد أرسطو أن قوة الحب والصدقة لا تقتصر على العلاقات الشخصية بل تتجاوزها، ورغم أهمية الحب في توطيد العلاقات في الدولة، فإن أرسطو -استناداً إلى الأحداث التاريخية- يتحدث عن الجوانب السلبية والمدمرة للحب وانحرافاته المتمثلة في العاطفة المتهورة المندفعة، الخيانة، العلاقات المثلية، وقد ذكر أرسطو هذا في مواضع عدة من "السياسة" (1303b 20-25, - 1306 a32 - 1306b3, 1311 a 33- 1311 b23)⁽³⁾.

²⁾ Vitalii Turenko: Philosophical view on importance of love in society: Plato vs Aristotle, p. 72, 73. <http://www.researchgate.net/publication/351525/37>.

³⁾ Aristotle: Politics, BK 11, Ch 4, 1262 b10, , Trans by, Mckeon.R, in the basic work of Aristotle, Random House, New York, 1941 , p. 1150.

¹⁾ Vitalii Turenko:, Op. cit., p. 73.

لقد انتقد أرسطو تلك العلاقة التي أقرها أفلاطون بين الحب والعدالة (أي القانون) وفي هذا يقول أرسطو في سياق تحليله "للقوانين": "إن هذا النظام السياسي عندما يطرح على شخص يلقي استحساناً وقبولاً كبيراً وذلك لأنه يسعده بادعاءاته الزائفة حول روابط الحب والصدقة التي سوف تجمع بين الناس^(١)، فالمساواة -وفقاً لأرسطو- ليست شيئاً واحداً في أمر العدل وفي الصدقة، فالمساواة في الأول هي المساواة المتناسبة مع استحقاق الأشخاص، وفي الثانية هي المساواة التي تتناسب مع مقدار المحبة ثم الاستحقاق^(٢).

ومن ثم، ينكر أرسطو الرابطة الوثيقة بين الحب والعدالة، وهناك فرق كبير بينهما، حيث إنه في خطاب الحب نجد أن القيمة الرئيسية، وقلب الجذب فيه هو دائماً الآخر، أي الشخص الذي أحبه. وفي هذا يصدق الفيلسوف الروسي ف. سولوفيوف في مؤلفه "معنى الحب الصحيح"، والذي يرى أن الأنانية تتلخص في الاعتراف الحصري بأهمية الذات غير المشروطة وإنكارها للآخر، أما الحب فيتجاوز هذا الموقف الظالم مباشرة مؤكداً -لا في العقل الواعي- وإنما في الشعور الداخلي أهمية الآخر^(٣).

كيف يمكن أن نستلهم من آراء أرسطو في السعادة مبدأً نؤسس عليه قيم جودة الحياة؟ ولم قد عاود مفهوم السعادة، رغم قدم تناوله، عاود الظهور مرة أخرى على ساحة الفكر الفلسفي وفي علم النفس الحديث أيضاً؟

لقد أدى انتشار القيم الرأسمالية الاستهلاكية إلى زيادة الثروات المادية، لكنه لم يساهم، من الجانب الآخر، في تحقيق السعادة أو رفاهية الإنسان، فضلاً عن أن البناء الاجتماعي في الثقافات المتقدمة اقتصادياً قد هيا للناس حرية الاختيار في مسارات الحياة العديدة، في حين تضاءلت مصادر التوجيه والإرشاد، مما جعل السؤال عن قيمة الحياة وجودتها قائماً، وإنه بالعودة إلى نظرية أرسطو في السعادة نجد أنها تمثل لديه أسلوباً للعيش جيد يساهم في تحقيق السعادة وازدهار الحياة، وقد تم استلهم العناصر الأساسية في نظرية أرسطو عن السعادة، والاستعانة بها لوضع أنموذج للتطور الاجتماعي (Haybron, 2008)، فالبيودايمونيا كمفهوم واسع للحياة الطيبة يضمن أن تكون الحياة جيدة من عدة أوجه؛ سواء من الناحية الأخلاقية أو من الناحية الجمالية، أو من حيث رفاهية الشخص الذي يحياها^(٤).

^(٢) Aristotle : Politics, Bk 11, Ch 5, 1263b 15-20, op. cit., p. 1152.

^(٣) أرسطو: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ك٨، ب٦٠، فصل ٧، ص ٢٤٥.

^(٤) Vitalii Turenko: Philosophical view on importance of love in society, op. cit., p. 74.

^(١) Richard M. Ryan & Frank Martela: Eudaimonia as a way of living: connecting Aristotle with self-determination theory, Hand Book of Eudaiw, 2016, p. 10.

ومن الباحثين المدافعين عن الحياة الجيدة لدى أرسطو هي "مارثا نوسباوم" Martha Nussbaum، والتي وضعت قائمة بالسمات التي تميز إنسانيتنا المشتركة، رغم اختلاف المجتمعات والظروف، والتي ينبغي العمل عليها حتى نحقق نمطاً من جودة الحياة، وترى أنها مستوحاة من أرسطو. منها على سبيل المثال؛ القدرة المعرفية cognitive capability، وفي هذا يصمد قول أرسطو: إن جميع البشر يرغبون في المعرفة بطبيعتهم" يصمد أمام التحليل الأنثروبولوجي الذي يشير إلى أن هناك مقوماً في إنسانيتنا المشتركة قائماً مستقلاً عن الثقافة، إلى أن يتم تشكيله لاحقاً، ومنها العقل العملي فالبشر باختلافهم وباختلاف ثقافتهم يخططون لحياتهم وإدارتها جيداً، ويطرحون الأسئلة نفسها حول كيفية العيش الجيد، كذلك فإن قول أرسطو بأننا بالطبيعة كائنات اجتماعية تسود بيننا روح الصداقة، هو مبدأ تجريبي صحيح وذلك مهما اختلفت مفاهيم الحب والصداقة، فهي في نهاية الأمر، متداخلة متشابهة⁽¹⁾.

تعقيب:

إن السعادة والحب من الموضوعات المثيرة للاهتمام، وذلك لأنها تمثل تجارب وأحاسيس قد نعيشها جميعاً، ونرغب فيها، لكن لا ندرك ماهيتها الحققة، ونختلف حول طبيعتها، وأسبابها، بل ونختلف أيضاً حول ماهيتها، ولقد قدم أرسطو تحليلاً فلسفياً وافياً عن السعادة، وطرائق الوصول إليها، واختلاف الناس في طلبها، لكنها، بلا شك، تُعد الخير الذي يرغب فيه الجميع، ورغم أن أرسطو قد عرف السعادة بأنها فعل النفس الموافق للفضيلة، فإنه قد تنبه لدور الخيرات الخارجية في تحقيق السعادة، ومن ثم، كان أرسطو واقعياً في نظريته عن السعادة، كذلك رأى أنها لا تتحقق لفترة قصيرة أو من خلال فعل واحد، وإنما يجب أن يعيش المرء حياة فاضلة كاملة ليكون سعيداً. ولم يجعل أرسطو هذه الفضيلة فطرية، لكنه أكد أنها تكتسب بالتعلم والعادة والتدريب، ومن ثم تجاوز أرسطو فكرة ارتباط الخير بفئة من البشر دون سواها، على أساس نقاء المولد، أو سلامة الفطرة، لكنه جعل الفضيلة، والسعادة، أمراً متاحاً للجميع.

لقد أكد أرسطو على دور الحب في تحقيق جودة الحياة وسعادتها، فإذا كنا لا نتوقع أن يكون هناك إنسان سعيد في حال مرضه، أو فقدانه لعزیز، مثلاً، فكيف يمكن أن يحيا إنسان سعيداً، وهو الاجتماعي بطبعه، دون أن تربطه علاقة صداقة وود مع الآخرين، ومن ثم، قدم لنا أرسطو وصفاً للسعادة أو لجودة الحياة، يتمثل في إحراز الإنسان للفضائل، وإعماله لملكة التأمل بوصفه حيواناً عاقلاً، وإثراء مبادئ الصداقة والمودة بينه وبين الآخرين، أي أنه خاطب الإنسان بكنيته؛ من حيث هو عقل، وضمير، وقلب، وإذا ما حدث التوازن بين هذه الكينونات، واستطاع الإنسان أن يحرز منها جميعاً الوسط العدل، تصبح حياته أكثر سعادة ورفاهية.

⁽⁸⁾ Martha Nussbaum: op. cit., p. 263, 264.

النتائج:

- ١- قدم أرسطو آراءً حول السعادة و الحياة الجيدة وكيف يمكن الوصول إليها لأنها غاية كل البشر، ووضع طرائق لهذه الغاية تتمثل في اكتساب الفضائل العقلية والشخصية، وضبط النفس والسيطرة على الانفعالات غير العقلانية، كذلك قدم الحب بوصفه مرتبطاً بالعلاقات الإنسانية يعمل على ترابطها وثقلها فالإنسان الذي يعيش في علاقات اجتماعية تسودها متعة الحب، بطبيعة الحال، يحظى بحياة جيدة سعيدة. لقد كان أرسطو في تحليله للحياة السعيدة وجودتها أكثر واقعية، وأكثر اقتراباً من الإنسان في واقعه المعيش، فلم يعول في رؤيته للسعادة على أفكار ميتافيزيقية، وإنما أكد على إرادة الإنسان الخيرة، واختياره الصائب، في مسلكه للسعادة.
- ٢- يميز أرسطو بين الفيليا والإيروس، ويرى أن الأخير ضرب من ضروب الإفراط في سمات الفيليا، كالإفراط في العواطف والانفعالات، والإيروس هو ضرب من الصداقة يجمع بين المتعة والمنفعة، وليس بالضرورة أن يكون بين متكافئين، كما هي الحال في الفيليا، ولقد ربط أرسطو بين الحب والفضيلة، فالفضيلة وفقاً له، هي موقف محب تجاه الآخرين، فالإنسان الفاضل هو الذي يكون لديه استعداد للعطاء والحب ومساعدة الآخر، وذلك على النقيض من الإنسان السيئ الذي يؤدي الآخرين ولا يبادلهم تعاطفاً أو مودة.
- ٣- يعد أرسطو أول من قدم معالجة منهجية للفضيلة في الفلسفة الغربية، ورغم الانتقادات الكثيرة التي وجهت لنظريته، فإنه يعد منظرًا لأخلاق الفضيلة تلك الأخلاق التي لا تستند إلى مبادئ أخلاقية خارجية، ولا تركز على الواجبات والنتائج المترتبة على الأفعال - كما هي الحال في النظريات الأخلاقية الحديثة- لكنها تربط الأخلاق بالدوافع الداخلية للإنسان، وتؤكد على حال الفاعل لا الفعل، ومن ثم، فإنها تفتح المجال لتطوير الشخصية الأخلاقية وصقل الفضيلة من خلال الممارسة والعمل.
- ٤- عقد أرسطو تناظراً بين علاقة الحاكم بالمحكومين و علاقة الوالد بأولاده، ورأى أنها في الحالتين يجب أن تسودها مبادئ العطف والمودة، ورغم إقراره لأهمية الحب في توطيد العلاقات بين أفراد المجتمع، وأثره في درء الفتن والثورات، فإنه كان متردداً بشأن آرائه هذه، حيث يمكن أن يكون للحب مردود سلبي على الدولة، وذلك بسبب اندفاع مشاعر الحب، وما يرتكب بشأنه؛ كالخيانة، مثلاً.
- ٥- لقد تصدر البحث في مفهوم السعادة ساحة الفكر الفلسفي والنفسي مجدداً، وذلك إزاء ما أصاب الإنسان في العصر الحالي من تشيؤ، وفقدانه لسعادته، وللقيم الإنسانية الروحية، وذلك أمام هذا التسارع الهائل في قيم الرأسمالية، ومن ثم، يمكن أن نستلهم من التراث الفلسفي ما يعيننا على أن نجد ذواتنا مرة أخرى وسط صخب هذا العالم الاستهلاكي المادي، ونؤكد على قيم الصداقة، والحب، والفضيلة، والبحث عن السعادة بوصفها غاية الإنسان القسوى - كما ذكر أرسطو.

قائمة المصادر و المراجع

المصادر العربية والمترجمة إليها

- أرسطو: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة من اليونانية إلى الفرنسية: بارتلمي سانتهلير، نقله إلى العربية: أحمد لطفي السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- أفلاطون: المأدبة، ترجمة: وليم الميري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م.
- اللاترسي (ديوجين): حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الأول، ترجمة وتقديم: إمام عبد الفتاح إمام، راجعه على الأصل اليوناني: محمد حمدي إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦.

المصادر الأجنبية:

- Aristotle: Politics, Trans by, Mckeon.R, in the basic work of Aristotle, Random House, New York, 1941.
- Aristotle: Rhetoric, Trans by, Mckeon.R, in the basic work of Aristotle, Random House, New York, 1941.

المراجع العربية:

- إبراهيم (زكريا): مشكلة الحب، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٤م.
- تايلور (ألفرد إدوارد): أرسطو، ترجمة: عزت قرني، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٢م.
- كرم (يوسف): تاريخ الفلسفة اليونانية، هنداوى، القاهرة، ٢٠١٤.
- كوبلستون (فردريك): تاريخ الفلسفة، المجلد الأول (اليونان وروما)، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م.

المراجع الأجنبية:

- Egbekpalu, P. E.: Aristotelian concept of happiness (Eudaimonia) and its conative role in human existence: A critical evaluation, conatus, Journal of Philosophy, Vol 6, No. 2, 2021. <http://doi.org/10.12681/clp.26924>.
- Daniel, D: A summary of Eudaimonia in Aristotle ,Academia.edu/41116739/A-summary-of-eudaimonia-in-Aristotle.
- Konstan D : Aristotle on love & Friendship, SXOAH, Vol 11.2, 2008.

- Kraut, R: The importance of love in Aristotle's Ethics, philosophy Documentation center, 1975.
<http://www.pdcnet.org>scholor pdf> show>.
- Kucukuysal, B & Beyhan. E: Virtue Ethics, in Aristotle Nichomachean Ethics, art in, international Journal of Human Sciences, Vol (8), 2011.
- Nussbaum, M.: Non-Relative virtues: An Aristotelian Approach, art in, the Quality of life, ed by, Nussbaum, M., Sen. A, Clarendon press, Oxford, 1993.
- Ostefeld, E.: Aristotle on the Good life and quality of life, art in, philosophy & Medicine, concepts and measurement of quality of life in health care ed by, Lennart Norden elf, Springer science + Business, 1994.
- Ryan, M. R., & Frank Martela: Eudaimonia as a way of living: connecting Aristotle with self-determination theory, Hand Book of EU Diaw, 2016.
- Salim, E.: Embracing the half: Aristotle's Revision of platonic Erōs & Philia, Tavas A & M university, 2006.
- Turenko, V: Philosophical view on importance of love in society: Plato vs Aristotle, p. 72, 73. <http://www.researchgate.net/publication/351525/37>.

موسوعات أجنبية

- Jennings, B: Quality of life, philosophical& Ethical dimensions, art in, Encyclopedia.com/encyclopedia-alamanas-transcripts-and-maps/quality-life-philosophical-and-ethical-dimensions.